العروبة الجبارة

شيخ العرب مع جمال باشا

حدث هذا الحادث في آخر الحرب الكبرى الأولى، وكان اسم جمال باشا قائد الجيش الرابع في سوريا يرهب الناس لما كان يأتيه من الظلم والشنق في من يقال انهم أعداء الدولة، فكان اسمه رعباً كاسم بختي الوحش في قلوب الناس. فني أواخر الحرب حدث ما يأتي:

دخل الأمير لاني حمدي بك الى مكتب فخامة جمال باشا قائد الجيش العثماني في سوريا يصحبه الى جانبه شيخاً من مشايخ العرب، تبدو العزة من أظفر ما لبسه أمراء العرب الكبار، طويل القامة، ممتلئ العامة، عريض المكبين، كبير الرأس، طلق المحيا، مشرق الطلعة، متورد الوجنتين، عريض الشاربين، كثيف الحاجبين، ممتلىء الساعدين والكفين، وكل ما فيه يدل على أنه من جبابرة العصر، تكاد هيئته تنبىء شرراً لصولته، ومقلتاه تشعان اشعة الذكاء الساطع. وتكسو ذقنه لحية عريضة طويلة تغمر عنقه وأعلى صدره، وقد وخطها الشيب قليلاً. وفي نظراته وقار يدل لديه جبروت الملوك والقواد.

لما دخل قال: «السلام على فخامة القائد الكبير جمال باشا» فما شعر جمال الا وهو يقف أخيراً بوقار هذه الهيبة. ثم قعد توًّا. ورأى الشيخ الى يمين مكتب جمال باشا مقعداً فاستوى عليه. فاستغرب جمال باشا كل الاستغراب أن الشيخ قعد من غير أن يؤذن له وهو قعد أحد في حضرة جمال، فكيف يجسر هذا الشيخ أن يقعد. بل قل ما من أحد من الناس مهما كانت صفته ورتبته وقف لدى جمال باشا أو واجهه الا ارتعد فرقاً. لا لأن هيبته رهيبة، بل لأن ما سمع عن جبروته في التنكيل والشنق وقسوة الاضطهاد قد اشتهر في جميع الأقطار التي تحت سلطانه وتجاوزها الى غيرها. فكيف جسر هذا العربي أن يقعد غير مبال بجبروت جمال. ولكن هذا هيبة العربي تغلبت على الجبروت المصطنع. فلذلك لم يجسر جمال أن ينتهر الشيخ ويسأله كيف يقعد من غير اذن. ولكن جمالاً قال للضابط حمدي بك المترجم بالتركية: «قل له: انها لقلة أدب منه أن يقعد من غير استئذان».

فارتبك حمدي بك واستصعب أن يترجم هذا القول للشيخ الوقور. على أن جمال التهره بحدة وقال: «لماذا لا تقول له؟».

فقال حمدي بك بالعربية للشيخ: «لم تجر العادة أن يقعد أحد في حضرة القائد الأعظم قبل أن يأذن له».

فقال الشيخ: «ولكن العادة عندنا أنه متى دخل علينا أي انسان مهما كان وضيعاً نرد له التحية ونشير اليه في الحال أن يقعد: أما قائدك فلم يرد التحية».

فترجم حمدي بك هذا الكلام بحروفه. فقال جمال موجهاً الخطاب الى الشيخ: «ألا تعلم انك معتقل»؟

فباغته الشيخ بالتركية، لأنه يعرفها جيداً منذ كان طالب علم في الاستانة: «لا لست معتقلاً» وما جئت الآن أحد الضباط قال لي أن جمال باشا يريد مقابلتك، فأسرعت الى جمال باشا لأرى ماذا يريد مني. ولو قال ذلك الضابط اني معتقل ما ترددت في المجيء أيضاً.

فقال جمال: «إذن علمت الآن انك معتقل».

الآن علمت انك تبتغي اعتقالي. ولكن اعلم انه لا يستطيع أحد أن يعتقلني. فأنا هنا أدخل وأخرج بكل حرية.

فقال جمال: لا تظن اننا نحسب حساباً لهذه المنجهية العربية.

فقال الشيخ: «نحن لا نعتمد في معاملة القواد والأمراء والملوك على المنجهية بل على القوة الحقيقية لا الوهمية».

وكان جمال ينظر فيه وكل هنيهة يغض نظره لأنه لا يستطيع أن يسد القوة النفاذة التي في عينيه. فقال له — «ماذا تعني؟»

— أعني أن عندي الوفاً من المقاتلين، كل واحد منهم بعشرة من جنودك. وعندي من البنادق الحديثة الطراز الوف كل بندقية منها تحطم عشراً من بنادقك. وعندي مئات من المدافع الضخمة كل مدفع منها يحطم عشرات من مدافعك القديمة. وعندي ...

فصاح به جمال وكاد يفهم ما يقول: سه، سه كي تهويلاً. هذا التهويل لا يقلقل قدمي في موطئها. ما اسمك؟

— اسمي زعيم العرب الأكبر

قال محتداً: — اسمك. اسمك. اسمك؟

— ألا يعجبك هذا الاسم؟ ماذا يهمك ان كان اسمي عليّاً أو سعداً ما دام هذا الثوب يشمل شيخ العرب كلهم؟ ألم تفهم بعد أنك تخاطب أمير جميع أمراء العرب؟ والا فقل:

كيف تستقل شخصاً لا تعرف من هو ، حتى اسمه لا تعرفه

فهي غضب جمال حتى كاد ينقض عليه ولكن يده خانته ولم تطعه فقال للبرالاي حمدي : خذه الى البهو الآخر ينتظر فيه الى أن أدعوه

فأبلغ حمدي الى الشيخ هذا الأمر وأشار اليه أن يقوم فقال الشيخ : ان كانت مهمة جناب القائد قد انتهت فأخرج نهائياً . والا فلن أخرج من هنا حتى ينتهي غرض جمال باشا مني

فقال حمدي : يريد فخامة الباشا أن يختلي ببعض الأشخاص هنا

— فليختل بهم حيث هم ينتظرون لا هنا .

فنظر فيه جمال نظرة حادة وما لبثت نظرته ان تكسرت لدى نظرة الشيخ . ثم نهض متغيظاً وخرج الى بهو آخر واستدعى بعض الأنصار الكبار من العرب وسألهم : ما ذا تعرفون عن هذا الشيخ الذي عندي الآن ؟

فقالوا نعرف انه زعيم الوحدة العربية . وقد جمع كل امراء العرب فانضموا تحت زعامته مقتنعين .

فسألهم عن اسمه ، فقال أحدهم يقال أنه يدعى الأمير سطام الأعظمي

وفيما كان جمال لا يزال يسائل الأنصار عنه قام الشيخ من مكانه واتجه الى شباك يشرف على الميدان الذي أمام القصر دار القيادة العليا . فاعترضه حمدي وقال له: ان يقعد في مكانه لئلا يأتي جمال ويراه يطل فيغضب . أما الشيخ فلم يبال بل اطل من الشباك وأجال نظره في من يتمشون في الميدان وأبدى اشارات لم يفهمها حمدي

ثم دخل جمال وغضب اذ رأى الشيخ لدى الشباك . وقعد كل في مكانه . وقال جمال : علمت لماذا أنت معتقل ؟

— قلت لك اني لست معتقلاً . لا يستطيع وزيرك ولا رئيس وزارتك ولا سلطانك أن يعتقلني . فأقلع عن هذا الزعم الموهوم . وقل ماذا تريد مني ؟ كفى دعابة يا باشا

قال جمال . الست أنت الذي جمع جميع قبائل العرب في اتحاد عربي عام :

— نعم . أنا هو . نعم جمعتهم في اتحاد عربي شامل جميع العرب .

— وعرب الحجاز أيضاً ؟

— نعم وعرب نجد واليمن وتهامة وحضرموت والبحرين ، وبعد ذلك عرب سوريا والعراق ، وبعد ذلك مصر وفلسطين ، وبعد ذلك مراكش وتونس والجزائر . فاذا بعد ؟

— إذاً لا تنكر خيانتك للدولة .

— معاذ الله . ليست هذه خيانة للدولة بل هي أمانة للعرب .

وكان جمال يتظاهر وهو يسمع كلام الشيخ سطام الخرب، وبكاء ونحيبه لشدة عزمه . فهذا الذي كانت ترتعد فرائص الناس من نظراته القاتمة شرر التهديد كاد ينتفض جزعاً من جراء كلمات الشيخ التي كانت تصور لجميع قواد العرب التي تناهز الثمانين مليوناً متألبة على الترك، وكادت تتفلت عن حلم كان يحلمه . فأجاب بتؤدة — ماذا تريدون من اتحادكم هذا ؟

فقال بسطام بإسناد منطق — هذا جلي عربي واسع النطاق نريد به استقلالنا لاصلاح أحوالنا لأننا أصبحنا على شفا انقلاب عظيم في هذه الحرب التي تضع أوزارها قريباً . فنود أن نرتب أمورنا منذ اليوم . نحن متحدون تمام الاتحاد . فاذا رامت الدولة العثمانية أن تنتفع من اتحادنا فلتسد أوزارها وإلا فليتم بشؤوننا مستقلين .

فقال جمال منتشياً : ان مصيبة « الدولة العلية » جاءت عن يد العرب .

فأجاب الشيخ بحدة وجف لها قلب جمال الصلب : لا ، بل مصايب العرب والاتراك أيضاً جاءت من نفس الدولة التي تسمونها « بالدولة العلية » لو أحسنت الدولة للعرب وجميع رعاياها وعاملتهم بالعدل وحسنت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية وقصرت عملها على الاصلاح لكانت اليوم تحل محل الامبراطورية الرومانية ، وكانت سيدة الدول . فكانت الدولة العثمانية تملك أكثر مما كانت تملك الامبراطورية الرومانية في إبان عزها . وكانت الامبراطورية البريطانية تخشى الآن سؤددها، وكان الفخر الذي للانكليزي والتبجح الذي يمتاز به لك ولي . . .

وفي تلك اللحظة دخل ضابط وقدم للقائد العظيم تلغرافاً ورد من خط القتال . ففا قرأه جمال امتقع لونه . فأدرك الشيخ سطام أن التلغراف ينذر باخفاق الجيش في القتال . وبقي جمال برهة متجهماً يضرب أخماساً بأسداس . ثم قال — لقد تمادينا في الفسحة وأنت معتقل . خذه يا حمدي الى السجن .

فتقدم حمدي بك الى الشيخ ليصطحبه . فانتفض الشيخ وزرق وقال : كفى ما أنتم فيه من غرور وعنجهية وحسبكم هذا الهذيان . عد الى مكانك يا حمدي . اني حر أخرج متى أشاء وأدخل متى أشاء .

وكان قد قارب الى الباب . فالتفت الى جمال كأنه يودعه : فرأى في يده مسدساً طار لبه راجعاً إليه ووقف أمامه وألقى مرفقيه على المكتب العريض الى أن صار على قاب قوسين من المسدس، حتى دهش جمال لجرأته العتية ولم يطاوعه أعصابه أن يضغط على الزناد . وقال الشيخ بالتركية الفصحى : حاذر أن تكون جباناً قادراً يا جمال . ما هذا الغدر شيمة القائد الكبير

أنت تعلم أن بعض رجالك جرّدوني من سلاحي قبل أن أدخل إليك . لم أمانع احتراماً لمقامك، ولأني كنت أعتقد أن اعتقالك الكبير الشريف العسكري الذي يعصمه عن الغدر . والآن أنبهك الى سوء مصيرك إذا مددت لي يداً بسوء . في مدة ست ساعات اذا لم أرجع الى رجالي سليماً يدخلون هذه المدينة على جثث قتلى رجالك ويحيلونها بيد القسر . وفي ساعة واحدة يدكونها الى الحضيض بمن فيه، هم يعرفون أني هنا الآن، ويعرفون أن قتالنا أصبح ضرورياً، فتأخري عنهم يقذف بهم الى هنا لا محالة، ولا تستطيع قواك القليلة أن تقف في سبيلهم لحظة

فقال جمال : كيف يعرفون أنك هنا وأنت لم تكن هنا قبل ساعة

— أجل أنا هنا أفتكر وأتكلم وهم هناك ينبحون . رد مسدّسك الى مكانه . عندنا الوقت مثله لا نجازف بحياتك وحياة جيشك المهزوم

فضاق جمال ذرعاً بهذا الشيخ وفكر طويلاً مضطرب البال ، والشيخ لا يزال مسنداً مرفقيه على المكتب منتظراً . ثم ردّ جمال المسدّس الى مكانه وقال : اجلس يا شيخ سلام، لي كلام معك خطير

فتقعد الشيخ على المقعد الى جانبه . وقال جمال : — لا أراكم اذا جمعتم شملكم . . .

وقاطعه دخول ضابط اليه بتلغراف . فتناوله بيد مضطربة وقرأه مكفهرّاً ، ثم قال : نعم اذا جمعتم شملكم أيها العرب وشددتم استقلالكم ، فالاستقلال أمنية كل أمة ، والاتحاد هو الطريق الوحيد اليه . واذا كنتم متحدين على هذا النمط الذي أرى فلا ريب انكم تحصلون على الاستقلال . لذلك لي اقتراح عليكم خطير الشأن فيه ضمانة لقضيتكم . فما رأيك ؟

— اسمعني الاقتراح لكي يكون لي رأي فيه

— حسناً . أود أن أعرض على الدولة العلية مشروع استقلالكم الداخلي . وأكون أنا فيه والياً أعلى ويكون شاملاً ، شاملاً جميع الامم العربية التي سنحرر منها ما وقع في أيدي دول أجنبية

وهنا تبسم الشيخ واستمر جمال يتكلم : — وتكون وظيفتي أن أرعى دستوركم الذي تصدرونه لهذا الاستقلال . ولا أتدخّل في شؤونكم الداخلية . فتكون للدولة العلية السيطرة على البلاد العربية سيطرة اسمية كما كانت سيطرتها على مصر قبل الاحتلال الانكليزي . وأظنه يكون من مصلحتكم أن يكون هذا الاستقلال مسنداً الى قوة الدولة بعد خروجها من هذه الحرب منتصرة ان شاء الله

وهنا تبسم الشيخ سلام ابتسامة عريضة واستمر جمال يتكلم : — والدولة في مقابل

ذلك اتاوة سنوية منكم وسنذ الآن تتقدمون لشد أزرها في الميدان المصري. فما رأيك الآن؟

فأجاب الشيخ : مشروع حسن جداً يجب أن أعرضه على زملائي أمراء العرب

— متى يمكنك أن تعرضه وتجاوبني ؟

— غداً مساء

— حسن جداً . سأرسل معك وفداً من رجال السياسة عندي إذ لا بد أن تحتاج الى خبرتهم وعلمهم في تقرير بعض النقاط. أنت تدعو الأمراء الى أون « الغوطة » بعيدين عن الرقباء إذ لا يخفى عليك أن المشروع قد يحرك تلبه بعض الأفكار ويرقط الظنون السيئة . وسأرسل وفداً آخر يعود معكم عند عودتكم لئلا يتمرتن لكم بعض جنودنا الذين يجهلون تدبيرنا هذا .

وركب الشيخ سطام مع عشرة فرسان من رجال جمال باشا .

***

في مساء الغد عاد الشيخ سطام ووراءه الفرسان السياسيون، وصعد بجواده توًّا على درج القصر العريض حتى بلغ الرحبة التي فوق الدرج . فخرج جمال على قرقعة حوافر الجواد ودهش إذ رأى الشيخ أمير الاتحاد العربي يكاد يدخل بجواده الى البهو وقال بحدة : ماهذا الذي فعلت . أيها الشيخ؟ ما الخبر؟ .

فترجل الشيخ سطام وترك عنان جواده والجواد لا يتحرك في مكانه ولا يتزحزح في موقفه وقال : متجهماً : — كنت أعتقد أنك تصدق الصدق العسكري وتحترم شرف تولك الجندي .

— احترمه طبعاً

— إذاً فما معنى أن ترسل طابوراً من جندك لكي يتصيدوا زملائي الأمراء جميعاً ؟ انها لخيانة خبيثة لا مثيل لها يا جمال

فقال جمال ماكراً : لا علم لي بما تقول :

— أفلن ضاط ذلك الطابور نزل عليهم وحي بأن مئتي أمير من أمراء العرب قادمون الى الغوطة فتصدوا لهم بناء على هذا الوحي . أليس هو وحي جمال ؟ لم يزعم حين كنا ذاهبين ولما هدنا وأينامثات يهاجموننا . فأوعزت للأمراء أن يرجعوا حالاً وألا يحتكروا بهم بتاتاً . جئت مع رجالك لكي أبلغك خبر خيانتك . فاعلم أنه بمثل هذه الحيل لا يحدث اتفاق بيننا يا هذا . ولا سيما لأن الهزيمة أمامكم عند حدود فلسطين . وقد شعرت بها من قراءتك للتلغرافين .

وهمّ الشيخ أن يركب فأمسك جمال بيده قائلاً : مهلاً لا تعجل . ولا تحكم بلا تحقيق . ليس لي علم بهذا البطيور سوى أني أرسلته في « دورية كشافة » ولا أعلم أين هو وليت خبره إذ لم ترد لي منه أخبار . فكن واثقاً أن ما حدث كان خطأ . وسأرسل محله وفداً آخر عسكريًّا كبيراً يحول دون حدوث خطإ كهذا . أيها الشيخ ان مستقبلكم ومستقبل الدولة يتوقف على تنفيذ هذا المشروع . وقد أرسلت رسالة برقية بهذا الشأن الى رئيس الوزراء ، وانني لمؤكد انه سيهتم بتحقيقه . فأرجو أن تعود حالاً وتفاوض الأمراء ثم ترجع إليّ ببشارة سارّة

والظاهر أن أخبار الحرب التي كانت ترد الى جمال باشا من ميدان سيناء كانت تنذر بانهيار الجيش العثماني أمام جيش الحلفاء . فتذكر جمال أن يضم مساعدة العرب وهي آخر سهم في الكنانة

***

بعد يومين عاد الشيخ سطام صاعداً بجواده الى أعلى الدرج فتلقاه أحد الضباط الوطنيين . فسأله عن جمال باشا . فقال الضابط لقد فرّ جمال فرار اللص . لأن جيش الحلفاء احتلّ الآن فلسطين ودخل في صباح اليوم حدود الشام لأن جنودنا كانت تفرّ أمامه فرار الأرانب

فقال الشيخ : إن كنا رجالاً نستغل هذا النصر الأجنبي لأنفسنا . وإلاّ فالسبب الذي اتحدنا لأجله قد زال وسنحل هذا الاتحاد ويضمحل ذاك الاستقلال الذي منينا النفس به لقد صار في خبر كان .

***

هذا ما كان يجب أن يكون فعلاً لا قصة على الورق . ولكن بعد « خراب البصرة » اجتمع كبار العرب وألفوا الجامعة العربية ثم جاءت الحرب الصهيونية فكانت امتحاناً لها فانجحت في الامتحان .

ترى هل يمكن أن ينجح العرب في اتحاد جديد يصد عنهم العدو اللدود العنيد ؟

ترى هل يقوم فيهم شيخ كالشيخ سطام المرهوم فيجمع كلمتهم ويقود حركتهم ويغرس ألسنة الخونة منهم . إن الله على كل شيء قدير .

(يتبع)